صورة الشخصية السلطوية في روايات عبد الرحمن منيف

د. صالح ولعة
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار -عنابة

ملخص

لم تتدرج الشخصية الروائية في رويات منيف في مستوى واحد، بسبب انفتاح النص الروائي على المجتمع بسائر فئاته، ولذلك نجد تنوعا في الشخصيات الروائية، حيث تتجاوز الشخصية المثقفة و الشخصية الشعبية في النص الروائي تجاوزا مبنيا على أسس موضوعية تتلاءم و طبيعة المرحلة الاجتماعية التاريخية التي تعبر عنها، بالإضافة إلى الشخصية السلطوية، ممثلة في جلاديها وجواسيسها وأمرائها وعملائها. ويبدأ الصراع والمواجهة بين الشخصيات المثقفة والشعبية من جهة، و بين شخصيات السلطة من جهة أخرى. ويتخذ الصراع أشكالا متعددة حسب رؤية الشخصية وموقفها من طبيعة التغيير. وتحضر في النص المنيفي-كذلك-شخصية العميل الأجنبي، الذي يسهم بشكل فعال في صياغة أفكار السلطة ومواقفها و تأكيد تبعية هذه الدول إلى الغرب.

Résumé

Le personnage romanesque dans l'œuvre de Abderrahmane Mounif n'apparaît pas dans un niveau unique vu l'ouverture du texte sur toute la société et ses différentes classes sociales. Ainsi le personnage cultivé et le personnage populaire apparaissent côte à côte pour lutter contre le personnage qui incarne le pouvoir. Cette lutte prend diverses formes selon la vision du personnage et ses positions vis à vis du changement. On trouve aussi l'espion qui participe efficacement dans l'orientation des décisions du pouvoir pour le renforcement du bras de fer contre le peuple

نتناول في هذه الدراسة جملة القضايا المتعلقة بتوظيف عبد الرحمن منيف للشخصية في رواياته و نبدأ بـ:

1 - شخصية السلطان :

طرحت هذه الشخصية في النص المنيفي بأبشع صورها؛ إذ عمد الكاتب إلى إبراز عالمها الداخلي وكشف جشعها وحقدها، فهي مطيعة للغرب، تعمل كل ما في وسعها من أجل إرضائه، وتكشف في المقابل

عن وجه دموي حاقد تجاه شعبها. و كلما ازدادت قبضة الأجنبي عليها ازدادت قمعا وإرهابا بأبناء الشعب، ذلك أن هذه الشخصية لا تستمد شرعيتها من الشعب، وإنما من الآخر الغربي الذي صنعها لخدمة مصالحه الخاصة، ولتبقى كابوسا مرعبا، يجثم فوق صدور الشرقيين، ويجعلهم يعيشون في رعب دائم. يخاطب السلطان فنر أخاه قائلا:« هذه موران يا بو منصور، لا تفهم إلا بالعصا، ولا تتعلم إلا بالعين الحمرا ... وبالدم، واللي يريد يجرب، خله يطلع قرعته » [1].

بدأت شخصية السلطان فنر تمارس القمع بأبشع صوره، منذ أن بدأ يعي العالم وحدوده والذين يسيرونه، فأظهر في البداية ميلا وخنوعا لهاملتون، العميل الإنجليزي الذي لم يأت إلى الشرق لينصب ملوكا ويقيل آخرين فحسب ، وإنما لبناء ممالك، فسافر معه إلى بريطانيا، وهناك أحرى له غسيل المخ وقدم له كتاب الأمير ميكيافيللي "الغاية تبرر الوسيلة". وقبل هذا الدور، مارس هاملتون الدور نفسه مع السلطان خريبط ، الذي أظهر خنوعا لا حدود له في مقابل الإبقاء عليه ملكا. فهو يدرك جيدا أن بقاء الملك في منصبه أو تنحيته يقاس بمدى ولائه وخضوعه للأجنبي من جهة، وقدرته على ممارسة القمع ضد أبناء شعبه من جهة أخرى . هذا هو المقياس الوحيد لإبراز الطاعة والولاء مقابل الرضى عنه، وقد استخلص السلطان خريبط هذا الدرس جيدا من الذين سبقوه. سقط الأمير الذي سبقه مزهر ابن سحيم لا لشيء إلا لأنه أراد أن يخرج عن طاعة بريطانيا، « كان من السهل أن يبقى رأس مزهر بن سحيم بين كتفيه فترة أطول. لو أنه لم يلعب تلك اللعبة الخطرة: التحرش بأصدقاء بريطانيا، والذهاب إلى أعدائها، طلبا للمساعدة والعون » [2].

ولما تمكن خريبط من القضاء على مزهر بن سحيم، أراد أن يظهر الوفاء والطاعة لبريطانيا، فأرسل في طلب أحد الأنجليز كي « يجلس هنا ونتفاهم معه»[3]. وبدأ الطرفان يمارسان اللعبة بتفوق، يضغط هاملتون على خريبط ويوجه سياسته، وفي المقابل يضغط خريبط على الرعية لتعيش في رعب متواصل.

تخشى الشخصية السلطوية غضب الآخر –الأجنبي– لأنها تدرك أن بقاءها في منصبها مرهون بمدى طاعتها وخضوعها له، وهذا ما ولد الخوف بداخلها. ويزداد هذا

الخوف ويكبر مع الزمن، إلى أن يصبح حالة خطيرة ومشوهة، ويسعى الأجنبي إلى استغلال حالة الخوف هذه، ليشدد قبضته على الحاكم العربي، فيصبح هو المسيّر الحقيقي للبلاد، بينما تبقى شخصية الحاكم العربي عبارة عن واجهة ليس إلا .

قدم الراوي في الجزء الثالث من رواية مدن الملح الموسوم بـ " تقاسيم الليل والنهار " الحوار الذي تم بين السلطان خريبط و" بتلر"، ويظهر الحوار كيف يعامل المندوب البريطاني السلطان ، وكأنه تلميذ مشاكس: « وقد روى يونس شاهين فيما بعد أن بتلر في مرحلة معينة قال: لا، فرد عليه السلطان: قتلتني ... قال بتلر: هذا كل شيء .. قال السلطان: أخذت نصف مملكتي وجعلتني الآن عاريا أمام رعيتي ... وكاد بتلر أن يرد على السلطان، ولكنه فجأة توقف، فدموع السلطان كانت تتساقط على وجنتيه بغزارة . ومثل ما يحصل في لحظات الضعف ... قال بتلر: اسمع ... ويجب أن تسمع ذلك جيدا ... إنني إذا أخذت منك في هذا المكان ، فإنما أعطيك هنا ، وأشّر بالقلم الأحمر » [4] .

ويظهر موقف السلطان خريبط الضعيف كأنه يساوم على قطيع من الغنم ، ويريد أن يخلص بسرعة« والله وبالله وتالله، لولا معزتكم، ولولا أن الواحد يريد يخلص، ما كنت أقبل، لكن ما يخالف ... إنكم إذا غبنتونا هذه المرة لكن لا بد تعوضون علينا، وهذا دوم يحصل بين الإخوان والشركاء ! » [5].

يبرز هذان المقطعان السرديان قناعة السلطان خريبط في أن بريطانيا شريك أساسي إن لم نقل صاحبة الكلمة العليا في تشكل المملكة ، ولذلك يزداد السلطان قناعة أن المندوب البريطاني " بتلر " بمثابة أبيه وأمه اللذين أنجباه ورفعاه من الحضيض إلى مقامه الحالي، وأنه مستعد للتنازل عن نصف مملكته ، بل عن المملكة كلها إذا أمر بتلر .

وعندما يتقاطع التاريخ مع الفن، تظهر صورة الواقع العربي المعاصر القبيح، وينكشف زيف قناع القداسة الذي يختفي وراءه بعض السلاطين والحكام. فقد أورد ألكسي فاسيلييف في كتابه "تاريخ العربية السعودية" الحوار الذي دار بين الملك عبد العزيز (خريبط روائيا) والمندوب البريطاني السير بيرسي (بتلر روائيا)، وحضر هذا

اللقاء العميل ديكسون (هاملتون روائيا) كتب ديكسون يقول: « ... وفي لقاء خاص اقتصر على بيرسي كوكس وابن سعود وأنا، لم يطق كوكس صبرا على ما أسماه بموقف ابن سعود الصبياني من فكرة الحدود القبلية ... كان أمرا غريبا أن يلاحظ المرء كيف يوبخ المندوب السامي لصاحب الجلالة سلطان نجد وكأنه تلميذ مشاكس. قال كوكس لابن سعود بصرامة: أنا هو (كوكس) الذي يقرر شكل الحدود وامتدادها العام ... » [6].

تعمدت الإطالة في تقديم هذه النصوص من الفن ومن التاريخ لإبراز طبيعة الشخصية السلطوية الحقيقية ومدى خضوعها وتبعيتها للأجنبي. ولم تقتصر التبعية إلى الغرب على السلطان خريبط فحسب، بل أورثها أبناءه، فعندما تولى الأمير "فنر" السلطة بمساعدة أمريكا خاطب حاشيته بقوله: « ما أريد أخفي عليكم سر: بعد اللي صار بالدواحس، قال الأميركان: وليش ما نجيب جماعة أفندية، ومعهم عسكر، يحكمون السلطنة، بدل هذول الشيوخ والأمراء، وكان بينهم كثيرين موافقين ومتحمسين، وقالوا توكلوا على الله، ولولا أني طرّشت واحد وراء واحد، مع رسائل وتطمينات، واللي يريدون يصير، وإلا السالفة اللي براس كم واحد منهم صارت .. فهمت هالحين يا راكان، ليش نقول الدستور والدولة الحديثة وغيرها من السوالف الجايفة » [7] .

ومثلما ينقلب السحر على الساحر، انقلب السلطان " فنر " على أستاذه هاملتون الذي علمه وصايا الأمير ميكيافللي (الغاية تبرر الوسيلة)، وراح يطبق عليه ما تعلمه منه، خاصة وقد أدرك " فنر " أن الأسد البريطاني تحول إلى الشيخوخة، أو على الأقل أنه أسد بدون أنياب، والتقى طموح السلطان " فنر " مع الإله الجديد الصاعد (أمريكا) لتستمر التبعية، ذلك أن الشخصية السلطوية كما طرح النص المنيفي، حتى وإن غدرت بمن أوصلها إلى سدة الحكم، فهي لا تحاول أن تتحرر من كل ضغط خارجي، بل على العكس من ذلك لا تجد الشعور بالقوة إلا بخضوعها إلى من هو أقوى في تلك الفترة الزمنية. وهكذا، تصبح التبعية قدر الشخصية السلطوية، ويقابل هذا الخضوع والتذلل للغرب، وجه دموي قمعي تجاه الشعب .

سعت أمريكا إلى تشديد قبضتها على الحاكم الجديد بإسداء عدة نصائح له يكون من شأنها إسكات المعارضة وتوطيد الحكم مثل إعلان قيام الدستور مظهريا فقط، وازداد هذا التأثير حين أعلمته بمحاولة تدبير انقلاب ضده«الأمريكان بينا وبينهم مسافات ربنا، يعرفون ويدرون أن الحريق وصلنا، وأنتم غافلين، لولا أنهم قالوا لنا احرصوا من فلان وفلان. وإلا صرنا أثر بعد عين، لأن هذول الضباط اللي حطينا عليهم دم قلوبنا وسويناهم أوادم، محضرين رواحهم ومتفقين على كل شيء» [8].

وهكذا ، تدفع أمريكا بتأثيرها المباشر على السلطان إلى أن يعيش الناس حياة الخوف الدائم « يلزم نخلي الناس عايشين بخطر ودايما خايفين، لأن المخوطر، واللي خايف على روحه أو على رزقه، يعرف اشلون يدافع عن نفسه، أما إذا الناس عاشوا وبالهم مرتاح، وسهر وسوالف، الواحد يوشوش الثاني ويقول له شفت في المكان وصار بالمكان الفلاني. فترى إذا حكمنا اليوم وكنا متأكدين، باكرا واللي عقبه ما ندري شنهو اللي يصير » [9]. فشدد المراقبة على الجيش وخاصة المسؤولين والضباط الكبار، فكان فنر يصرح في الأسرة الحاكمة « فتحوا عيونكم زين على الضباط، كل ضابط بدل العين الواحد عليه تصير ثنتين وأريد أن أعرف» [10] .

دفع هذا الأسلوب الشعب إلى العيش وسط رعب دائم، فتفاقم الخوف والقتل، وانتشرت السجون بكثرة لإسكات من تسول له نفسه التكلم بصوت مرتفع، وبدأ القمع يزحف ويزداد بشكل سريع إلى أن غدا معلما بارزا في حياة الناس.

وهكذا ، طرحت شخصية السلاطين والأمراء في النص المنيفي معادية ودموية تجاه شعبها، وضعيفة تابعة للغرب، إذ هي لا تستمد شرعيتها من الشعب، بمقدار ما تستمدها من مدى خضوعها وتبعيتها للأجنبي.

2 – شخصية مثقف السلطة:

بالإضافة إلى شخصية السلاطين والأمراء ... يطرح النص المنيفي شخصية أخرى مؤثرة في المدار السلطوي ، مثل شخصية الحكيم صبحي المحملجي الذي يعد من أكثر الشخصيات حضورا في مساحة السرد الروائية في رواية " مدن الملح"، إذ أسهمت هذه الشخصية بتصرفاتها وأفعالها وأخلاقها في بناء الرواية، كما أسهمت

الشخصيات الروائية الأخرى (مفضي الجدعان، شمران العتيبي) في تضخيم شخصية المحملجي من خلال حديثهم عنها وكشفها أمام الأهالي. ولهذا، كانت شخصية المحملجي الحاضر الأكبر في الرواية، إذ فاق حضورها وفعاليتها شخصيات السلاطين والأمراء. ولا تتأتى قيمة شخصية المحملجي في المساحة السردية من حضورها الواسع بقدر ما تتأتى من فعاليتها وضرورية وجودها في تلك المرحلة بالذات دون غيرها من الشخصيات الأخرى، نظرا إلى ما ستقوم به من دور في قيام المدن الصحراوية، وتوجيه السلطان « إن أهمية الشخصية في الرواية لا تقاس ولا تتحدد بالمساحة التي تحتلها، وإنما بالدور الذي تقوم به وما يرمز إليه هذا الدور، وأيضا مدى الأثر الذي تتركه في ضمير القارئ، مما يدفعه للتساؤل والمقارنة، تمهيدا لتصويب موقف في الواقع، وبالفعل تجاه هذا الموضوع الأساسي» [11] .

والحكيم صبحي المحملجي هو ذلك الطبيب المثقف الآتي من البلاد الشامية إلى هذه المدن الصحراوية التي اكتشف بها الأمريكان النفط، وهكذا تلاقى جشع المحملجي بوفرة المال، فتحولت المدن الصحراوية – حران وموران – من مدن مجدبة قاحلة إلى مدن تعج بالعمال والخبراء، فاتسعت الأسواق ونمت الحركة التجارية، وبدأت اليد العاملة تفد إليها من كل مكان، سعيا وراء الكسب وجمع المال. وهكذا، أسهم المحملجي في تحول المملكة، مثلما أسهم أجداده قديما في بناء الأمبراطورية العربية الإسلامية، وفي سقوطها أيضا !!

تصادفنا شخصية المحملجي في نهاية الجزء الأول – التيه – من الخماسية، ونعلم أن المحملجي موجود في حران منذ ثلاثة أشهر، عانى خلال هذه الفترة صعوبات التأقلم مع المكان القاتل، أضف إلى ذلك أن مدينة حران لم تتشكل فيها النواة الأولى للبرجوازية الصغيرة ولذلك لم يجد غير الصبر والانتظار، إذ تعد مثل هذه المدن الصحراوية المنفى الاختياري لجمع المال، ومنذ البداية تبدو لنا هذه الشخصية قوية، تمتلك فكرا ثاقبا وبعد نظر، لا تستسلم بسرعة، وأول ما ينطق به المحملجي في الرواية « أن لا يتخذ قرار تحت تأثير الغضب والانفعال.. » [12] .

ويمضي الراوي في استقراء هذه الشخصية المحورية التي تبدو كلها تصميم على التحدي وعلى الاعتماد على النفس، فهو ليس من المتفاخرين بأجدادهم وأمجادهم وكان يتحاشى الحديث عن ماضيه وماضي أسرته، وكان دوما يردد أمام الجميع (أن الفتى من يقول ها أنذا وليس الفتى من يقول كان أبي)، ومع أن الراوي يمهد لوضع شخصية المحملجي أمام القارئ عاريا، إلا أنه يبقى يطارد هذه الشخصية عبر الصفحات الطويلة للرواية، من خلال السخرية المبطنة من كلامه . فقد قال لنفسه بنوع من التحدي « الرجال هم الذين يخلقون الأماكن وهم الذين يتركون بصماتهم عليهم » [13] . ومن أجل إبراز طابع السخرية من هذه الشخصية يلجأ الراوي إلى التعقيب على كلام المحملجي « وضحك بفرح لأن كلامه كان سحرا خالصا » [14]. وأحيانا نلمح أسلوب الراوي التهكمي« رغم زحمة المشاكل التي تشغل الحكيم ، فإن قضايا الفكر وفلسفة الكون لا ينساها ، لأنه منذور لشأن أكبر من موران، وأبعد من الأيام التي يقضيها الإنسان على وجه البسيطة » [15] .

كما يلجأ الراوي إلى كشف الحكيم من خلال مواقفه وفلسفته المزيفة، وتبدأ شخصية الحكيم تتضح أكثر وتتضخم في الوقت نفسه عندما يدخل في خلافات مع الآخرين والتظاهر بمظهر الكريم السخي، وما ذلك إلا لاستغلالهم وتحقيق مصالحه. وتقوم الشخصيات الأخرى في الرواية بدور مهم في كشف جوانب شخصية الحكيم عندما يدخل الطرفان في صراع، فتتضخم شخصية الحكيم وتصبح محور الرواية بأكملها. تمتلك مثل هذه الشخصية « تعددية في الحياة داخل الإنسان، ويستطيع الروائي باستخدامها وحدها أحيانا أو بنوع آخر غالبا إنجاز تأقلمه ومناغمة الجنس البشري بالأركان الأخرى لعمله » [16] .

يقول ابن النفاع وهو شخصية تمثل الوعي الشعبي البسيط « آه .. يا بن الحرام، يا أرناؤطي، حسبناك ابن آدم تراك طلعت منهم، لكن مثلما قالوا الكلب أخو السلوقي » [17].

أدى تحول حران وتزايد الاهتمام بها باعتبارها تمثل مستقبل ميناء السلطنة، إلى تداخل العلاقات الاجتماعية وتشابكها، وبدأت المصالح تتضارب، وبدأ التنافس يحتد،

وعندها ظهرت الملامح الأولى لتشكل برجوازية صغيرة في الفضاء الصحراوي. أدرك المحملجي ذلك جيدا منذ الوهلة الأولى، فهو الطبيب المثقف ابن المدينة، أيقن أنه جاء في الوقت المناسب إلى هذا المكان، وأن الفرصة مواتية لتحقيق أحلامه وطموحاته على حساب الأهالي الفقراء ، فأخذ يراهن على الزمن في هذا السباق .

كما أدرك أن الطريق الأسرع لجمع الثروة هو الاتجاه مباشرة إلى السلطة، سخر كل وقته من أجل السلطان، وكل خبرته وذكائه في خدمة صاحب الجلالة المفدى، فقد كان واثقا أنه إذا كسب قلب السلطان كسب كل شيء، فكان أقوى الجميع. لقد قاد الحكيم ذكاؤه إلى أن أيسر الطرق إلى قلب الأمير خزعل هو الجنس، فسأل عن الأمير، عن عمره واهتماماته وأي نوع من الرجال هو، وعندما تم التعارف بينهما، كان الحكيم يقود الحديث دائما إلى تلك القضية المباشرة والمثيرة " قضية الجنس ". وقد استغل الحكيم زيارة الأمير خزعل إلى حران لتدشين خط الأنبوب ليتعرف عليه، وقد تعرف من قبل على الأمير خالد وقدم له الأدوية المقوية. وهكذا، توطدت العلاقات بين الأمير خزعل والحكيم المحملجي إلى أن أصبح مستشاره وطبيبه الخاص. أدرك الحكيم أن أهمية الجنس ليست وقفا على الأفراد فقط، وإنما على الأمم والحضارات كذلك. وهكذا ، بدأت رحلة الحكيم في تحقيق أحلامه في جمع المال باصطياد الأمير خزعل عن طريق الأدوية المقوية .

كان الحكيم – ممثل البرجوازية الجديدة – يحتقر السلطة السياسية في الخفاء ويتحالف معها في العلن تحقيقا لمصالحه الشخصية، يقول: « الجماعة يا أخي بدو وحمير، إذا قلت لهم ثور يقولون: أحلبه ! » [18].

ويقول: « الحكومة كيف تسمح بهذه الخزعبلات، مائة مرة قلنا حكينا، لكن يا أخي كلهم حمير من فوق لتحت » [19] .

وأمام السلطة يقول « وسوف تذكر حران بعد عشرات السنين، مئات السنين، هذا اليوم الأغر المحجل من أيامها، يوم زارها ابن أعظم السلاطين، مولاي الأمير خزعل، ويوم تكرمت يداه ففتحت أنابيب الخير والبركة على هذا الشعب ، فتدفقت المحبة بين الناس وشملت الخيرات القاصي والداني وبدأت الحياة الهنيئة » [20] .

استغل الحكيم بذكائه وحيله سذاجة الأهالي، وتحالف مع السلطة، جاء إلى موران والمنطقة بأكملها لإعادة تشكيل العقول، وتنصيب الملوك والسلاطين، فنصب رجاله في مراكز السلطة مستغلا في ذلك ضعفها، فقد استطاع كما ذكرنا سابقا – عن طريق الأدوية المقوية – أن يطوع السلطان خزعل، ليكون أداة طيعة في يده أو دمية يحركها متى شاء وكيفما شاء. فقد رشّح حماد المطوع ليكون مديرا لجهاز الأمن، وعين مطيع شخاشيرو ابن أخته سكرتيرا للقصر، وجاء بالحلاق أبو مصباح ليكون حلاق السلطان، واعتمد على سمير قيصر الذي هندس معه فلسفة إعلام السلطنة، وزوّج ابنته سلمى من السلطان خزعل .

تتقاطع في الحكيم كل السلطات، سلطة السياسة وسلطة المال وسلطة المعرفة، حيث تتكثف كل هذه الخصائص النموذجية لمثقف السلطة العربية المعاصرة : الرياء، النفاق، التدليس، الكذب، التآمر، التذلل أمام السلطة والتحول إلى وحش ضار في الظروف المواتية. فالحكيم يحارب الكفر والإلحاد والفساد من جهة، ومن جهة أخرى تنتقل زوجته وداد بين أحضان المحيطين به "راتب وسمير" وارتعاش جسدها الذي لم تعد تملكه في حضور السلطان خزعل. ولم يتردد الحكيم في تقديم زوجته وبناته وقريباته طعما لاصطياد السلطان والمحيطين به، حتى يثبت سلطته أكثر .

كما أكد الحكيم على عامل الإعلام، فسلاح الإعلام لا يقل أهمية وتأثيرا على الأسلحة الغربية التي تقتل وتدمر، ولذلك حدد للصحافة دورا معينا « أن تعيد تشكيل عقل البشر وعواطفهم ، ونظراتهم، وأخيرا مواقفهم، حيث لا يفكر الإنسان ولا يتصرف إلا على ضوء هذه النظرة ، تماما كما كانت الأديان تفعل » [21] .

كما حرص على بناء كلية للشريعة بديلا للمسجد والعجرمي الذي رفض السكوت، وبإيحاء من الحكيم أطلق اسم السلطان على كلية الشريعة، وعين لها " ابن شاهين " ليقوم بزرع وتنفيذ ثقافة السلطة من جهة، وتقويض ثقافة المجتمع المدني من جهة ثانية .

كان الحكيم مثل الأخطبوط الذي يمسك بكل شيء ، يحرك كل شيء في الوقت نفسه خدمة لمصالحه المادية، أما الرجال المحيطون به فهم أشبه ما يكونون بعرائس القراقوز في يده .

تصور الحكيم نفسه فيلسوفا ولا مجرد مستشار للسلطان، إنه منذور لأمر عظيم هو بناء دولة، وبناء الدول يحتاج إلى عقل بحجم عقل المحملجي، وهو الوحيد المؤهل للقيام بهذه المهمة التاريخية، أما السلطان والأهالي فكلهم بدو، حمير. فأخذ يقضي الكثير من الوقت في التفكير في القضايا الكبرى إلى أن توصل إلى فلسفة المراكز الأربعة أو نظرية المربع « وهذه النظرية الفلسفية ليست نزوة من نزوات الخيال كما أنها لا تشبه ما قرأه الحكيم من كتب التاريخ .. إنها نظريته هو » [22]. وهكذا يمضي الراوي بهذا الأسلوب التهكمي في فضح الحكيم . وتتلخص نظرية المربع في وضع فلسفة: إعلامية، دينية، حسية وسياسية.

وأسند مهمة كتابة فلسفته وآرائه إلى الصحفي المصري سمير قيصر، الذي كان يقضي النهار كله في كتابة آراء الحكيم، وفي الليل يستمتع بجسد " وداد " زوجة الحكيم.

وكلما كثر المال ، ازداد جشع الطبقة البرجوازية الوافدة ، وأدى ذلك إلى تضارب المصالح بين الحكيم من جهة، وبقية الأشخاص الذين جاء بهم لمساعدته في تنفيذ أحلامه وأطماعه. بدأ راتب الفتال في مزاحمته في أعماله، وتغير موقف السلطان منه ، فقد همس المقربون من السلطان أن الحكيم هو أصل كل البلاوي ، أما محمد عبده – الممرض الملازم للحكيم – فأصبح يقول « ابن .. لبس لحية، صار مثل أي تيس، لكن كذبته مصلعة مثل. السعدان، وإذا ضحك على أهل موران وخدعهم لا بد أن يصيدوه»[23]. ويحذر الشيخ مالك من أن« الحكيم المحملجي عدو موران، وإن كان هناك أذى ينتظرها، أو يتربص بها، فإنه هو أو عن طريقه» [24]. أما سمير قيصر فيسخر من الحكيم، وينعته بالجنون « دا رجل مجنون، مجنون خالص، يفكر باختراع نظرية جديدة للعالم، دا راجل عبيط »[25].

وبكشف فلسفة الحكيم المزيفة، تنكشف خيبته وتتلاشى أحلامه بمجرد أن قام الأمير فنر بالانقلاب ضد السلطان خزعل خلال زيارة هذا الأخير بادن بادن بألمانيا. فهو الذي تصور نفسه صاحب رسالة تاريخية بدا هشا، ضعيفا وغير قادر على أن يفهم أبسط الأشياء التي تدور حوله، ولم يدرك هشاشة فلسفته وزيفها إلا بعد أن طرد من السلطنة .

كان بإمكان المحملجي – مثقف المدن الملحية – أن يقود تلك المدن الغارقة في بداوتها وينتقل بها إلى وضع أفضل ، وأن ينتج رؤية للعالم ، وقد منحه الراوي هذه الفرصة من خلال اتساع المساحة السردية التي يظهر فيها، فيبرز فلسفته وآراءه ومواقفه. إلا أن الكاتب وهو يطارد شخصية الحكيم عبر هذه الصفحات الطوال، كان يريد أن يفضحه ويكشف فلسفته المزيفة. يقدم تأملاته ممزوجة بسخرية مرة، ويكشف عن رؤية العالم المزيفة، غرضها الأساسي تحقيق المصلحة عن طريق النهب والاستغلال والتضحية في سبيل هذه الغاية بكل شيء (الزوجة، البنت ...) .

قدم الكاتب نموذجا للشخصية المثقفة التي تدور في فلك السلطة – التابعة بدورها إلى الأجنبي – فقد سخرت هذه الشخصية ثقافتها لخلق قيم مشوهة، وبالتالي تخريب بنية الثقافة الأصيلة في مناخها ورموزها ودورها. ولأنه تخريب في العمق، فقد استشرى واتسع وطال المناهل الأساسية في هذه الثقافة، وأدى هذا التخريب إلى الترويج للثقافة الاستهلاكية السهلة. وهكذا، طغت ثقافة النفط .

ولم يكن بإمكان شخصية المحملجي المثقفة أن تنتج وعيا بالثروة بوصفها عملية ترشيد الثروة النفطية في خدمة مختلف مناحي الحياة وتطويرها، حتى تصبح هذه الثروة جزءا من بنية صناعية واقتصادية متكاملة. إن الذي حدث هو العكس، فلم ترتبط النظرة إلى المال بالعمل والإنتاج، وهذا ما يفسر الشره الاستهلاكي الذي يسود تلك المجتمعات. وكانت شخصية المحملجي شخصية جشعة، وانتهازية، ولصوصية، وهي خصائص ثقافية اجتماعية ما قبل رأسمالية ، ولهذا لم يكن وفق الضرورة الداخلية التي تحكم سيرورة حركة الشخصية أن تنتج سوى إيديولوجية الخديعة، فلا

يمكن لثقافة النفاق والتدليس إلا أن تؤدي إلى تفكيك بكارة المجتمع الأصلي، وفي المقابل سيادة أنماط متدنية من الثقافة الاستهلاكية .

انتقل المحملجي بتلك المدن النفطية إلى نظام رأسمالي ريعي تجميعي تراكمي، وهذا ما أدى إلى غياب القوانين التي تحكم عادة نظام السوق الحر في المجتمعات الغربية، وقد أفرز هذا الوضع مزيدا من الهيمنة والقمع ضد الفقراء والبسطاء .

ولما أصبح المال هو الإله الوحيد في فلسفة المحملجي وفقا لرؤيته المزيفة للعالم، فقد ضيع كل شيء بضياع المال: فقد زوجته التي رفضت البقاء إلى جانبه، تخلى عنه كل الذين جاء بهم ليصنع الثروة، وأخيرا تخلى عنه ابنه الوريث الشرعي لسياسة النفاق والتدليس، ليواصل مسيرة والده متحالفا هذه المرة مع القطب الأمريكي .

نقول في الأخير إن تلك المدن الملحية لا يمكن أن ينمو في إلا مثل هذه الشخصيات الطفيلية. وإذا كانت تلك المدن هشة وقابلة للذوبان في كل لحظة، فإن شخصية المحملجي مثلها سرعان ما هوت وسقطت بمجرد أن هبت الريح الأولى – الانقلاب الذي قام به الأمير فنر ضد السلطان خزعل – لتتكشف هشاشة هذه الشخصية وزيف فلسفتها ، ويكون الجنون آخر محطة لها باتجاه القبر .

3 – شخصية الجلاد :

تعد شخصية الجلاد الامتداد الطبيعي للشخصية السلطوية، فهي اليد التي تبطش بها، ولعل مسألة الجلاد من أخطر المسائل التي طرحها النص المنيفي؛ إذ جعلها محور العمل الروائي، فهي تمثل القطب الثاني في معادلة السجين / السجان، وحرص الكاتب على تحليل هذه الشخصية تحليلا عميقا، مبرزا طبيعتها والعوامل التي جعلتها مشوهة ومعطوبة ، وتثير تساؤلا، فأسند تحليلها إلى أقرب الناس إليها، وهم المساجين، خاصة المثقفين منهم حرصا على الإقناع الفني .

تظهر شخصية الجلاد نوري في شرق المتوسط والشهيري وعاشور في " الآن. هنا " دون أن نعرف طروفهم الاجتماعية أو دوافعهم النفسية، فهم أناس غريبون حتى في مظهرهم الخارجي، لهم شعور طويلة تثير الخوف والرهبة، وكان الحقد والغضب يتطاير من عيونهم وأفواههم كالشرارة ، فيتحول السجين أمامهم إلى فريسة تنهش

بدون رحمة « ضحكوا كثيرا ... لما رأوا دمائي تسيل، استلقى نوري على ظهره، كان يضحك من الفرح واللذة .. قال لي: ما رأيك بهذه الحفلة؟ » [26].

يسعى الجلاد إلى التركيز على جسد السجين بغرض تدميره ، وهو ما أسماه جورج طرابيشي " تأنيث الجسد " [27]، ويتم عن طريق تدمير معالم رجولة الإنسان: « أمسك نوري مثل الطبيب بخصيتي ، بدأ يضغط بهدوء أول الأمر ، ثم شدهما بعنف إلى الأسفل، أحسست بروحي تخرج من حلقي ... لا أعرف من أين أتى بذلك الدبوس الكبير. أشعل عود الثقاب أشعل السيجارة، وضع الدبوس فوقها، تمنيت في تلك اللحظة أن يغرسه في قلبي. من جديد يمسك بخصيتي ويغرس الدبوس الأحمر. أي إله يمكن أن يكون في هذا الكون ويرى » [28].

كما يسعى الجلاد – من أجل إرهاب السجين ودفعه إلى الاعتراف – إلى أساليب عدة تترجم كلها الحقد اللاإنساني الذي يحمله الجلاد في داخله ويصل به إلى حد الرغبة في إفناء الإنسان. فبالإضافة إلى التعذيب الجسدي المادي، يلجأ الجلاد إلى التعذيب بالكهرباء وفي أكثر الأماكن حساسية، ويصل التعذيب إلى الاعتداء الجنسي على السجين « ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل؟ البكارة ؟ أن يدعو عشرة من حراسه ويفعلوا ما يشاؤون... » [29] .

ويتميز الجلادون بالجبن، ومن علامات ذلك أنهم يلثمون وجوههم، وقد كانوا يخافون من المساجين، ولعل هذا ما يفسر اختيارهم الساعات المتأخرة من الليل لإقامة (حفلات التعذيب). وقد تجلى الخوف أكثر عندما قتلوا " هادي ". يقول رجب: « لماذا يخافون ما دام هادي قد مات ؟ وهل يخاف القاتل لهذه الدرجة؟ ... كان هادي قويا وكبيرا كانوا يخافون منه في كل وقت، كان يضحك مثل طفل وهو يقول لنا: لا تخافون منهم أبدا إنهم أنذال وضعفاء، كلهم جبناء » [30].

اكتسب الجلاد القسوة والسادية وكره الآخرين، وتحول مع الزمن إلى مخلوق شره، لا يعرف الرأفة أو الرحمة، ولا يمكن استعادة الإنسان الذي خبا أو مات في داخله . يعدد عادل الخالدي صفات الجلادين بقوله:« . يكرهون القراءة، الكلمة المكتوبة، النبتة الخضراء، المكان النظيف، يكرهون أن يضحك إنسان، أن يتحدث إلى الآخر،

أن ينظر إليهم، أن ينظر إلى شيء، يكرهون أن يسألوا، ويكرهون أكثر الجواب ! كيف تعلموا هذا الصمت كله؟ ... » [31].

تحول الجلادون إلى بشر مشوهين محترفين، نخرهم السوس والعطب، يحتقرون أنفسهم فينفذون الأمر دون تردد، وقد يجلدون بعضهم، وربما بقوة أكبر، إنهم يفعلون ذلك امتثالا للأوامر في البداية ثم باعتباره واجبا وأخيرا إشباعا لرغبة شخصية، أصبح هؤلاء مرضى ومعطوبين. ولعل هذا ما يثير استغراب عادل الخالدي، فعندما قرأ الأوراق / الشهادة التي تركها طالع العريفي – قبل موته – أصيب بالدهشة، خاصة عندما كتب طالع عن الجلادين الذين صادفهم وكيف تفننوا في تعذيبه، وما ولّد دهشة عادل الخالدي أن الجلادين الذين صادفهم يشبهون أولئك الذين صادفهم طالع العريفي ، وهذا يعني أنهم تحولوا إلى نسخة واحدة، فلا يهم إن كان اسم الجلاد نوري كما في شرق المتوسط، أو الشهيري أو عاشور كما في الآن. هنا، ما داموا تحولوا إلى صورة مشوهة من الآدميين اكتسبوا تقاليد ثابتة من التعذيب وإلحاق الألم بالآخرين، يقول عادل الخالدي: « صحيح أننا لم نعش معاني السجن ذاته، لكن وهذا ما يثير دهشتي واستغرابي وتساؤلي، قابلنا نفس الجلادين، وإن اختلفت أسماؤهم، وعشنا نفس الآلام والعذاب .. » [32] .

الآن، وبعد أن استعرضنا الوظائف التي تنهض بها شخصية الجلاد داخل مساحة السرد، وموقف الشخصيات الأخرى (المساجين) منها، نستنتج ما يأتي:

1 – إن القاسم المشترك بين الجلاد الكبير (الحاكم) والجلاد الصغير واحد ، هو الخوف ، فكما دفع الخوف بالجلاد الكبير إلى قمع الشعب، فقد دفع الخوف بالجلاد (نوري، والشهيري، وعاشور) إلى قمع المساجين بهذه الوحشية التي تصل إلى حد الرغبة في تدمير إنسانية الإنسان .

2 – أن الفرق الأساسي بين الجلاد والسجين يكمن في حالة الخوف التي استولت على الجلاد، وعندما فشل في مقاومة قمع الجلاد الكبير، مال تدريجيا مع الوقت إلى ممارسة القمع ذاته على من يقع في دائرة قبضته، ومع مرور الوقت تترسخ قناعة الجلاد أن السجين هو خصمه الحقيقي، وهنا تنفجر بداخله طاقة الشرّ.

ليس السجن الجدران الأربعة فقط، إنما السجن بالدرجة الأولى حالة الخوف التي تسيطر على الإنسان حتى وإن كان خارج أسواره المادية. وما دامت المسألة في المقام الأول مسألة خوف، فإن الطريق الوحيد لهدم السجن الحقيقي تكمن في إزالة حالة الخوف المسيطرة على الإنسان، ولن يكون هذا إلا بالشجاعة والإيمان بالحرية للجميع.

وما دام الأمر بهذا التصور، فلا نبالغ إذا قلنا بأن عددا من الجلادين هم أيضا ضحايا بشكل من الأشكال، ضحايا نظام سياسي زرع الخوف في الأعماق، فتحول الناس، معظم الناس إلى جلادين وضحايا في آن واحد.. لقد خبا الإنسان في داخل الجلاد، إذ استطاعت حالة الخوف، التي أريد بها أن تنتشر وتعمم أن تجعل هذا الإنسان الموجود في الداخل يغفو أو يصم أذنيه، وبمرور الوقت خدّر وأصبح عاجزا عن المقاومة.

ولا يعني الكلام السابق أنني أريد تبرير موقف الجلادين، لكن النظرة المدققة تجعلنا نقول بأن جذرا من الأخطاء والتشوهات جعل الناس هكذا. فكما دفع خوف الجلاد الكبير من الأجنبي إلى قمع شعبه متصورا الشعب خصما له، فكذلك دفع خوف الجلاد من الحاكم إلى اتخاذ السجين خصما.

أدى انتشار الخوف إلى قيام امبراطورية للقمع في الوطن العربي، واتخذ القمع شكلا هرميا ، يبدأ من أعلى السلطة ثم يتنزل إلى أن يصل إلى قاع الهرمى الإنساني. يلجا الحاكم إلى قمع من هم دونه نتيجة خوفه على مصالحه من جهة، وضغط الطرف الأجنبي عليه من جهة ثانية. وبدل أن يقاوم المقموعون الحاكم، يلجأون بدورهم إلى قمع من هم دونهم، ويتصورون أن هؤلاء هم الخصوم، وهكذا إلى أن نصل إلى الأسفل فيقمع الجلاد نوري السجين رجب إسماعيل، ويقمع الشهيري طالع العريفي، ويقمع الجلاد عاشور عادل الخالدي، ويتنزل القمع إلى أبسط الأشياء ، يقمع الإنسان الطبيعة بقطع الأشجار (الأشجار واغتيال مرزوق)، ويقمع الحيوانات (النهايات ، حين تركنا الجسر)، وقد يكون الانتحار شكلا من أشكال القمع الذي يمارسه الإنسان ضد نفسه، ولا سبيل إلى تجاوز حلقة القمع الرهيبة إلا

بتحرر الإنسان من الخوف وتهديم أسوار السجون ، فكلما تحرر الإنسان كلما تقلصت السجون إلى حدودها المادية .

الهوامش:

1) – عبد الرحمن منيف، بادية الظلمات، .المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت ط 1989 1، ص 441

2) – عبد الرحمن منيف، تقاسيم الليل والنهار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1 1989 ص 15 .

3) – المصدر نفسه، ص 18 .

4) – المصدر نفسه، ص 237 – 238 .

5) – المصدر نفسه، ص 238 .

6) – ألكسي فاسيلييف ، تاريخ العربية السعودية، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة، دار التقدم، موسكو، 1986، ص 306 .

7) – عبد الرحمن منيف، بادية الظلمات، ص 522 .

8) – المصدر نفسه، ص 339 .

9) – المصدر نفسه، ص 343 –344 .

10) – المصدر نفسه ، ص 341 .

11) – عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة،.المركز الثقافي العربي، بيروت ط1 1998ص 149

12) – عبد الرحمن منيف، التيه،.المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ط3 1988 ص 485

13) – عبد الرحمن منيف ، الأخدود المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط3 1988، ص 22 .

14) – المصدر نفسه ، ص 22 .

15) – المصدر نفسه ، ص 420 .

16) – فورستر ، أركان الرواية ، .ترجمة موسى عاصي، خروس برس، طرابلس لبنان ط1 1994 ص 61

17) – عبد الرحمن منيف ، التيه ، ص 501 .

18) – المصدر نفسه ، ص 527

19) – المصدر نفسه ، 527 .

20) – المصدر نفسه ، ص 506 .

21) – عبد الرحمن منيف ، الأخدود ، ص 235 .

22) – المصدر نفسه ، ص 240 .

23) – المصدر نفسه ، ص 195 .

24) – المصدر نفسه ، ص 508 .

25) – المصدر نفسه ، ص 445 .

26) – عبد الرحمن منيف ، شرق المتوسط،.المؤسسة العربية للدراسات النثر، بيروت ط8 1991 ص 94

27) – جورج طرابيشي ، رمزية المرأة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط2 1988 ص.20

28) – عبد الرحمن منيف ، شرق المتوسط ، ص 95 – 96 .

29) – المصدر نفسه ، ص 95 .

30) – المصدر نفسه ، ص 81 .

31) – عبد الرحمن منيف، الآن. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، .المؤسسة العربية للدراسات و النثر، بيروت ط1 1991 ض352

32) – المصدر نفسه ، ص 64 .